المنشآت الطبية في الحرمين الشريفين خلال العهد العثماني

(دراسة تاريخية وثائقية)

عـــــايض بـن خَـــــزّام الروقـي

أستـاذ مـشـارك ، جـامـعــة أم القـرى ، مكــة المكرمـة ، المـمـلـكـة الـعـــــربيـــــة الـســـــعـــــودية

الملخص

البحث دراسة تاريخية وثائقية عن المنشآت الطبية في الحرمين الشريفين خلال العهد العثماني ، وهو دراسة علمية إعتمدت على أكثر من خمس عشرة وثيقة عثمانية أصلية ، إضافة إلى إعتماده على المصادر والمخطوطات العثمانية .

والبحث يتحدث في مجمله عن المنشآت الطبية التي أقامها العثمانيون في الحرمين الشريفين ، وعن المنشآت الطبية المساندة التي أنشئت على طريق الحاج إلى الحرمين الشريفين ، فقد أعطى البحث في مقدمة تاريخية موجزة لمحة عن المنشآت الطبية في الحرمين الشريفين في فترة ما قبل البحث ولا سيما أن الدولة الإسلامية لم تُغفل في هذا الجانب طوال تاريخها .

وعند وصول العثمانيين إلى المشرق العربي إهتموا بشئون الحرمين الشريفين إجمالاً وأهتموا بالمنشآت الطبية على وجه الخصوص ، فحافظوا على المنشآت القائمة رغم قلتها وبدأوا في إرسال البعثات الطبية والمهندسين لإنشاء المستشفيات والمراكز الطبية في الحرمين الشريفين وطرق الحاج المتجه لهما ، ويعتبر دار الشفا الذي بناه الصدر الأعظم محمد باشا صُوقللّي سنة **984** هـ / **1576**م بمكة المكرمة من أقدم هذه المنشآت الطبية ، ثم تتابعت هذه المنشآت الطبية واستمر إهتمام رجال الدولة العثمانية بها ، رغم تباعد المدى الزمني في ما بينها وقلتها وإنخفاض أدائها العملي ، فمستشفى الغرباء أنشئ بمكة المكرمة سنة **1278** هـ / **1862**م ، وتم تطويره وزيادة طاقته الإستيعابية سنة **1282** هـ / **1865**م ، وأنشئ المستشفى العسكري بمكة المكرمة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري / أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وذلك بتحويل قلعة فلفل في الفلق إلى مستشفى عسكري ، وهناك منشآت طبية أقامها العثمانيون في مكة المكرمة خلال تلك الفترة مثل مستشفى منى ودائرة الصحة العامة .

أما في المدينة المنورة فقد أقام العثمانيون عدد من المستشفيات والمنشآت الطبية وهي مستشفى الغرباء والمستشفى العسكري ومستشفى خسته خانه ومستشفى الحميدية .

ومن أهم إهتمامات الدولة العثمانية بالمنشآت الطبية في الحرمين الشريفين ، إهتمامهم بالمحاجر الصحية والكرنتينات وهي التي تُعنى بسلامة الحجاج والقادمين إلى أرض الحرمين الشريفين لأداء مناسك الحج والعمرة ، وقد أعطى البحث تصوراً كاملاً عن مفهوم الكرنتينات ونشأتها ، وعن المفهوم الاسلامي لها ، وعن أسباب قيامها في تلك المرحلة ، ثم ناقش البحث من خلال المصادر والمراجع أهم هذه المنشآت ، والتي كان من أبرزها المحاجر الصحية في جزيرة قمران في البحر الأحمر ، وكذلك المحاجر والكرنتينات التي أقيمت في مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر أواخر القرن الثالث عشر الهجري / أواخر القرن التاسع عشر الميلادي .

المقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على أفضل أنبيائه ورسله ؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، أما بعد :

فتحتاج المنشآت الطبية التي أقيمت في الحرمين الشريفين في المراحل التاريخية المختلفة إلى دراسة وثائقية متخصصة ، كي تُبْرزَ للباحثين والمهتمين أهمية هذه المنشآت كمّاً وكيفاً ، لا سيما وهي تمس قطاعاً كبيراً من أبناء الأمة الإسلامية ، وتقدم خدماتها لأهالي الحرمين الشريفين ومن يفد عليهما من الحجاج والمعتمرين والزوار .

ونظراً لطول المدى الزمني واتساعه وشموله لمراحل تاريخية مختلفة ، فإن هذا البحث سيكتفي بالحديث عن هذه المنشآت وتطورها وأهميتها في العهد العثماني ، من خلال الوثائق والمخطوطات النادرة التي ظفر بها البحث ، وهو ما يؤكد أهمية البحث بوصفه دراسة تاريخية وثائقية للمنشآت الطبية خلال العهد العثماني ، كما يلقي الضوء على أهميتها وأهدافها ومنطلقاتها ، وكذلك على أهداف القائمين عليها ، والداعمين لها مادياً ومعنوياً .

من ثم تصبح هذه الدراسة أنموذجاً حياً يبرز الوجه الحضاري المشرق للدولة العثمانية في المشرق العربي الإسلامي عموماً ، وفي الحرمين الشريفين خصوصاً ، ولا سيما أن هذه المنشآت الطبية كانت مظهراً حياً للفكر الإسلامي المستنير الذي يبرز الملامح الحضارية المشرقة للمسلمين في كل زمان وفي كل مكان ، وهو ما سيؤكده البحث في صفحاته اللاحقة .

مقدمة تاريخية موجزة عن أهم المنشآت الطبية في فترة ما قبل البحث

إذا كان خلفاء الدولة الإسلامية وملوكها وسلاطينها قد اهتموا بالمنشآت الطبية في كثير من العواصم والمدن الإسلامية وعلى فترات مختلفة من التاريخ ، فقد كان البيمارستان[1] الذي أوقفه الخليفة العباسي المستنصر بالله[2] سنة 628هـ/ 1231م بالجانب الشمالي من المسجد الحرام بمكة المكرمة بالقرب من باب زيادة ، من أول المستشفيات التي أنشئت بمكة المكرمة[3] .

وقد جدد السلطان الأشرف شعبان (أحد ملوك الجراكسة 764 - 778هـ/ 1376- 1362م) سنة 777هـ/ 1375م ، بيمارستان المستنصر بالله العباسي في مكة المكرمة وأنفق عليه وعلى الضعفاء والمساكين داخله وخارجه ما مقداره خمسة عشر ألفاً ومائتا درهم ، وصرف لهم العلاج بالمجان[4] .

وفي مطلع القرن التاسع الهجري خَرِبَ البيمارستان المشار إليه واندثر ، فاستأجره أمير مكة المكرمة الشريف حسن بن عجلان في شهر صفر سنة 816 هـ/ 1413م من قاضي القضاة بمكة المكرمة جمال الدين بن ظهيرة الشافعي لمدة مئة عام بأربعين ألف درهم ، وأذن له القاضي بصرف كامل الأجرة في عمارة ما تخرب من البيمارستان ، فشرع الشريف حسن في عمارته عمارة حسنة الإتقان ؛ إذ زاد فيه على ما كان عليه أولاً إيوانين : أحدهما في الجهة الشامية ، والآخر في الجهة الغربية ، وأحدث فيه صهريجاً ورواقاً فوق الإيوانين اللذين أحدثهما ، وفوق الإيوان الشرقي الذي كان فيه من قبل ، وفوق الموضع الذي فيه الشباكان المشرفان على المسجد الحرام ، وأدخل فيه البئر التي كان يستقي منها للميضأة الصرغتمشية[5] ، وأوقف جميع ما بناه وما يستحق منافعه في الموضع المذكور للمدة المذكورة على الضعفاء والمجانين والفقراء والمساكين ، وعلى المرضى من المجاورين والمنقطعين ، يأوون إليه وينتفعون بالإقامة فيه لا يزعج أحد منهم ، ولا يخرج منه بغير اختياره إلا بعد حصول العافية والشفاء له ، وإذا خلا البيمارستان من هؤلاء المرضى ، تم الانتفاع به للفقراء والمساكين من المجاورين .

وكذلك أوقف أمير مكة المكرمة حسن بن عجلان على هذا البيمارستان منافع الدار المعروفة بدار الإمارة عند باب بني شيبة ، بعد عمارته لها حين خربت بالحريق الذي وقع بها في أواخر ذي القعدة من سنة 814هـ/ 1412م ، واستئجاره إياها من قاضي القضاة بمكة جمال الدين بن ظهيرة الشافعي لمدة مئة عام[6] .

اهتمام الدولة العثمانية بالحرمين الشريفين

من المعروف أن الحرمين الشريفين صارا في حدود الدولة العثمانية – بوصفهما ولاية من ولاياتها – بعد إلحاق مصر بالدولة العثمانية سنة 923هـ/ 1517م ، وبتسلم السلطان سليم خان الأول (918– 926هـ/ 1512–1520م) مفاتيح الكعبة المشرفة . إلا أن اهتمام الدولة العثمانية بالحرمين الشريفين كان قبل هذا التاريخ ، حيث إن السلاطين العثمانيين – بوصفهم حكاماً متمسكين بالشريعة الإسلامية ، ولأنهم أصحاب دولة قامت على أسس إسلامية – كانوا حريصين على إعلان فتوحاتهم بين المسلمين في الحرمين الشريفين ، وذلك بإرسال الرسائل والهدايا إلى أمراء مكة المكرمة ، حيث إنها مهبط الرسالة ، ومنزل الوحي وقبلة المسلمين ومقصدهم كل عام ، وملتقى أفئدة المسلمين ، يطلبون منهم ومن المسلمين الدعاء لهم بالنصر على أعدائهم[7] .

فهذا هو السلطان بايزيد الأول (792 - 805 هـ/ 1384 - 1402م) يرسل إلى الحرمين الشريفين لأول مرة ، وقبل تسلم السلطان العثماني سليم الأول مفاتيح الكعبة المشرفة بأكثر من قرن ونيف من مدينة أدرنة مساعدات مالية مقدارها 80,000 ثمانون ألف ذهب[8] ، وعرفت هذه المساعدات المالية فيما بعد باسم الصرة[9] ، وذلك لتوزيعها على أهالي الحرمين الشريفين . ثم جاء ابنه السلطان محمد جلبي (824 - 816هـ/ 1421 - 1413م) فأرسل صرة سنة 816هـ/ 1413م مقدارها 14,000 أربعة عشر ألف ذهب ، وأرسل أخرى من مدينة أدرنة عاصمة الدولة آنذاك ، إلا أن مقدارها وسنة إرسالها لم تحددهما المصادر ، ويبدو أن هذه الصرر والمساعدات المالية لم تكن منتظمة ومحددة القدر في هذه الفترة ، إلا أنها بدأت تنتظم في عهد السلطان مراد الثاني بن السلطان محمد جلبي (824 - 855 هـ/ 1421 - 1451م) ، وتذكر المصادر التاريخية أن السلطان محمد جلبي أوقف على أهل المدينة المنورة أماكن من أملاكه الخاصة في ولايات الدولة[10] .

وفي سنة 827هـ/ 1424م أرسل السلطان مراد الثاني صرة مقدارها 3,500 فلوري[11] إلى كل من القدس الشريف وبلدة الخليل في فلسطين والمدينة المنورة ومكة المكرمة[12] ، كما أوقف المحاصيل والغلال في القرى الواقعة في منطقة باليق حصار – من أعمال أنقرة ، وأجرة مرور الجسر الذي عمله في هذه المنطقة على أهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف [13] ، وأوقف أيضاً في وصيته التي عملها قبل وفاته سنة 850هـ/ 1446م ثلث أمواله في مدينة مانيسا[14] (10.000 فلوري) على الحرمين الشريفين[15] .

ولما آلت السلطنة إلى السلطان بايزيد الثاني (886 - 918 هـ/ - 1512 1481م) رفع هذا المبلغ إلى 14,000 دوقة[16] من الذهب مناصفة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة ، بالإضافة إلى أنه اتخذ إرسال هذا المبلغ سنوياً إلى الأراضي المقدسة سنة 886هـ/ 1481م عادة وأصلاً من الأصول للدولة[17] .

ولما آل الأمر إلى السلطان سليم الأول (918 - 926هـ/ 1512 - 1520م) الذي تم انضمام الحجاز في عهده إلى الدولة العثمانية رُفِع هذا المبلغ إلى مائتي ألف فلوري من الذهب في كل سنة[18] والسلطان سليَم الأول أول من رتب صدقة الحَبّ لأهل الحرمين ، حيث وصلت سنة 924هـ/ 1518م من السويس إلى جدة سفن تحمل 7000 إردب [19] من القمح ، جهزها بأمر السلطان سليم الأول خايربك نائب السلطنة بمصر ، منها 2000 إردب لأهل المدينة المنورة والخمسة الباقية لأهل مكة المكرمة[20] ، وجعل إرسال الصرة والحب من مهام الدولة العثمانية الرسمية ، بحيث لم ينقطع إرسالها حتى الحرب العالمية الأولى التي منعت وصولها إلى الأراضي المقدسة بسبب ما قامت به الدول المحاربة للدولة العثمانية من قطع للطريق ؛ إذ رجعت الصرة من الشام ، وكان مقدار هذه الصرة ثلاثة ملايين وست مئة وأربعين ألفاً ومائتين واثنين وسبعين قرشا[21] .

ثم نرى أن الدولة العثمانية – بعد انضمام الحرمين الشريفين إليها – سنة 923هـ/ 1517م قد بدأت بتأمين احتياجات المنطقة والأهالي ؛ حيث قامت بحركة عمرانية رممت من خلالها مساجدها ، وأمنت أرزاقها ، وأوصلت عين

زبيدة من بئر زبيدة في الأوجر خلف منى من جهته الجنوبية إلى مكة المكرمة بعد عمل طويل وشاق دام 13 سنة[22] .

أولاً – المنشآت الطبية في مكة المكرمة

سبق أن أشرنا إلى وجود مستشفى (البيمارستان المستنصري) بمكة المكرمة في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ، حيث عمره أمير مكة الحسن ابن عجلان في بداية القرن التاسع الهجري . وعندما تسلم السلطان العثماني سليم الأول مفاتيح الكعبة المشرفة استبدل بهذا البيمارستان رباطاً بناه الخواجا يخشي القرماني[23] .

ولم تشر المصادر التاريخية إلى وجود مستشفى بمكة المكرمة في فترة انتقال الولاء من الجراكسة للعثمانيين ، لكنه من المستبعد أن لا يهتم العثمانيون بهذا الجانب الحيوي والمهم بمكة المكرمة ؛ حيث إنهم وجدوا أنفسهم في حركة عمرانية حاولوا خلالها تأمين جميع احتياجات البلد والأهالي من الأرزاق والخدمات الأساسية ، فوجدنا الأمير مصلح الدين – الذي كلفه السلطان سليم الأول بإيصال الصدقات الرومية وكسوة الكعبة إلى مكة المكرمة ، والأمير خاير بك نائب السلطان بمصر – الذي كُلف بإيصال حبوب الصدقات إلى الحرمين الشريفين – يقومان بأعمال كثيرة في مكة المكرمة بعد فراغهما من توزيع الصدقات ، من ترميم وتعمير . كذلك قام الأمير خاير بك بكتابة بيوت كل حي ، وكتابة ما في كل بيت من أعداد الأنفار رجالاً ونساءً وأطفالاً وخداماً ، ما عدا التجار والسوقة والعسكر في دفتر ، فكانوا اثني عشر ألف نفر ، وخصص لكل واحد منهم مخصصاً سنوياً من الحب والنقود[24] ، ولم يغفلا عن أي شيء كان يحتاج إليه أهل الحرمين الشريفين من الخدمات الأخرى ، ولذلك يفترض وجود مستشفى بمكة المكرمة في هذه الفترة كما دلت على ذلك بعض الوثائق العثمانية الموجودة في أرشيف رئاسة الوزراء باستنبول ، حيث صدر أمر سلطاني بتاريخ 963هـ/ 1556م بتكليف شخص يدعى ملانا الشفائي بالعمل طبيباً براتب مقداره ثلاثون درهماً من محصلات جدة ، وتم ذلك بناء على طلب رفعه

قاضي مكة المكرمة والمدينة المنورة للسلطنة[25] .

وفي سنة 982هـ/ 1574م صدر أمر سلطاني آخر بخصوص تعيين مُلاّ صفي الدين طبيبا في مكة المكرمة براتب قدره عشرة دراهم ، وكان ذلك أيضاً بناء على طلب رفعه القاضي حسين قاضي مكة المكرمة للسلطنة ؛ نظراً لحاجة البلد إلى طبيب متمرس[26] مما يعني وجود مستشفى يمارس فيه هؤلاء الأطباء عملهم . وتذكر أحد المصادر التاريخية التي تتحدث عن تاريخ مكة المكرمة أن الوزير الأعظم محمد باشا ، المعروف بـ (صقللي) ، (الذي تولى الوزارة العظمى في ذي القعدة سنة 972هـ/ 1565م في أيام السلطان سليمان القانوني ، واستمر حتى اغتيل سنة 19 شعبان سنة 987هـ/ أكتوبر سنة 1579م في أيام السلطان سليم الثاني) ، أمر أن يبنى له بمكة المكرمة بالقرب من الحرم الشريف مساطب[27] ، ومباسط تصلح للمرضى فتكون دار الشفاء لهم ، وأن تبنى فيه خارجة دكاك وبيوت تكرى وتصرف في مصالح هذا المكان ، إلا أنه لم يشر إلى تاريخ بناء هذا المستشفى ، ولكنه يفهم من سياق الكلام أنه بني قبل سنة 984هـ/ 1576م[28] ، كما تشير إلى هذا المستشفى وثيقة عثمانية بتاريخ 991هـ ، وهي عبارة عن حكم أُرسل إلى قاضي مكة المكرمة بخصوص أوقاف دار الشفاء والصيدلية اللتين بناهما الوزير محمد باشا صقللي بمكة المكرمة[29] ، وفي سنة 1085هـ/ 1674م وصل إلى مكة المكرمة مهندسون ومعماريون من السلطنة العثمانية لبناء دار الشفاء ومارستان ، وقام هؤلاء المهندسون بدراسة الموقع ليتم البناء عليه ، فاختاروا لذلك موقع بعض الدكاكين التي كانت تقع في الجانب الأيمن من المحناطة التي تعود ملكيتها لبعض أشراف مكة ، وتم تعويضهم عن دكاكينهم تلك بمبالغ مجزية ، وتم هدمها لتشييد البناء عليها[30] .

ويبدو أن صاحب هذا المشروع الخيري الصحي أوقف عليه أوقافاً عدة ، بعضها في مدينة جدة ؛ حيث أشارت الوثائق العثمانية إلى أنه في سنة 1158هـ/ 1745م أعد تقريراً عن أحوال بعض الأوقاف بجدة التي تخص دار الشفاء بمكة المكرمة ، والمتمثلة في مستودعات للغلال ، وعدد من الغرف المبنية على هذه

المستودعات . وكانت المستودعات في حاجة إلى كثير من الترميمات والإصلاحات نظراً لقدمها ، لكي تؤدي عملها ، وتتم الاستفادة منها لمصلحة دار الشفاء . وتشير تلك الوثائق إلى أن هذه الدار هي من منشآت والدة السلطان العثماني ، وأنها قد أقامتها على نفقتها الخاصة لمصلحة أهل مكة المكرمة ومرتاديها[31] ، مما يدل على أن هذا المستشفى هو المعني بتلك المهمة التي قدم من أجلها المهندسون والمعماريون في أواخر القرن الحادي عشر الهجري . ومن هذا التاريخ حتى أواسط القرن الثالث عشر الهجري لم يرد ذكر لدور الشفاء بمكة المكرمة في المصادر التي تخصها ، ولا يستبعد وجود دور للشفاء بها في هذه الحقبة الزمنية من التاريخ ؛ حيث إن الدولة العثمانية كانت ملتزمة بإرسال ما كانت ترسله في السابق من الإعانات والمساعدات العينية والنقدية إلى الحرمين الشريفين ، والقيام بما يحتاج إليه أهل البلد من خدمات ، سواء أكانت عن طريق إصلاحات وترميمات أم عن طريق إنشاء المنشآت من جديد . ويبدو أن المصادر الموجودة في متناول الأيدي لم تتعرض لهذا الجانب من الخدمات ، ولعل الوثائق العثمانية التي لم يتم تصنيفها بعد[32] تُلقي ضوءاً على هذا الجانب في تلك الفترة الزمنية ، عندما يتم تصنيفها كاملة إن شاء الله تعالى ، ومن أهم المنشآت الطبية التي أُقيمت في مكة المكرمة منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجري ثلاثة مستشفيات هي :

1 ـ مستشفى الغرباء

بدأت الدولة العثمانية في إرسال لجان طبية إلى الحرمين الشريفين ، بغرض تحسين الحالة الصحية بالحجاز منذ أواسط القرن الثالث عشر الهجري . وقامت هذه اللجان بإعداد تقارير عن الحالة الصحية بها ، وتقرر في سنة 1278هـ/ 1862م افتتاح مستشفى بمكة المكرمة باسم مستشفى الغرباء[33] ، وذلك بقرار من لجنة طبية أرسلت إلى الحرمين الشريفين . ويذهب بعض الباحثين[34] إلى أن موقع هذا المستشفى كان قريباً من مدرسة خاصكي سلطان المعروفة بـ «خرم سلطان» زوجة السلطان سليمان القانوني ، أو هي المدرسة نفسها[35] ،

وكان يقدم طعام المستشفى والمرضى المقيمين فيه من رباط متصل بالمستشفى ، وأسندت إدارة المستشفى إلى محمد أفندي من أطباء الدولة العثمانية ، كما تم إرسال أطباء وأدوية من السلطانة بزم عالم والدة السلطان عبدالمجيد خان ، التي كانت قد تعهدت به من قبل ، إلا أن أمور المستشفى لم تنتظم ، حيث إن العناية بالمرضى لم تكن على مستوى مناسب ومرض[36] .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى سنة 1282هـ/ 1865م ؛ إذ أرسلت لجنة طبية أخرى لتفقد الأحوال الصحية بالحجاز ، وبقرار من هذه اللجنة تم تحويل مدرسة خاصكي سلطان خرم سلطان المذكورة إلى مستشفى مؤقت للغرباء والفقراء يحوي خمسين سريراً[37] ، ولعل ذلك تم بصورة رسمية إلحاقاً لما تم العمل به منذ عام 1278هـ/ 1862م ، كما ذكر سابقاً .

وقد زار هذا المستشفى كل من أيوب صبري ، المؤرخ التركي ، صاحب كتاب مرآة الحرمين ، الذي طبع عام 1303هـ/ 1886م بإستانبول ، والقائمقام الدكتور قيصرلي شاكر ، أحد أطباء مستشفى حيدر باشا بإستانبول ، وهو الذي أرسله السلطان عبدالحميد خان الثاني إلى الحجاز ، لتفقد الأحوال الصحية بها . وقام الطبيب المذكور بإعداد تقرير طبي مفصل عن مهمته سنة 1308هـ/ 1891م ورفعه للسلطان[38] ، . ثم زار المستشفى بعده إبراهيم رفعت قومندان حرس المحمل ، ثم أمير الحاج في 27 من ذي الحجة سنة 1318هـ/ 1901م ، وسجل كل منهم ما شاهده في المستشفى ، مع تقديم معلومات تاريخية عنه ، ولعل من المفيد أن نذكر هنا إيجازاً لما ذكره كل منهم عن هذا المستشفى :

يقول أيوب صبري : إن الطبيب محمد أفندي الذي أسندت إليه الطبابة والإدارة في مستشفى الغرباء بمكة توفي في أواخر سنة 1282هـ/ أوائل سنة 1866م ، وعين مكانه عاكف أفندي طبيب المعية لدى والي الحجاز المرحوم وجيهي باشا . إلا أن هذا الطبيب كان سيئ الخلق ، عاجزاً عن إدارة ما عهد إليه من كل الوجوه . وكانت إدارة المستشفى فاشلة مختلة في زمنه ، وكان المرضى بل أهل مكة كلهم منزعجين منه ، وكانوا يكرهون النطق بكلمة مستشفى

لكراهيتهم إياه ، لذلك لم تستمر وظيفته في المستشفى أكثر من أربع سنوات . وفي سنة 1286هـ/ 1869م كان الحاج عزت أفندي ينوب بالوكالة عن وجيهي باشا والي الحجاز ، وصرف مساعيه وهمته إلى إصلاح هذا المستشفى ، وتحسين أموره ، فعزل الدكتور عاكف أفندي عن إدارة المستشفى ، وعين مكانه محمد وزير خان ، أحد الأطباء الهنود المقيمين بمكة ، ورفع أمر تعيينه إلى الآستانة . وحظيت مساعي الحاج عزت أفندي بالقبول لدى المسؤولين في الدولة ، إلا أن عريضته أحيلت حسب الأنظمة المتبعة حينذاك إلى وزارة الصحة ، وعينت الوزارة على مستشفى الغرباء بمكة المكرمة طبيباً آخر اسمه بكر صدقي أفندي[39] ، بحجة أن درجة حذاقة محمد وزير خان الطبية ليست مناسبة لاستخدامه في مثل هذا العمل . وعندما وصل الدكتور بكر صدقي أفندي إلى مكة المكرمة وتسلم إدارة المستشفى بدأ يتخذ بعض التدابير اللازمة لتحسين إدارة المستشفى ، وإرضاء المرضى والأهالي ، وفي وقت وجيز جداً تحسنت الأمور في المستشفى ، وانتظمت وأخذت مجراها الطبيعي ، وبدأ المرضى والناس يرضون عن المستشفى وإدارته والتداوي والعلاج فيه ، وصار المستشفى كأمثاله من مستشفيات الدولة العثمانية في الآستانة . وكان المستشفى يحوي سبعين سريراً ، وبه اثنتا عشرة غرفة ، وصيدلية واحدة ومطبخ ، بالإضافة إلى حديقة ذات حوض به نافورة ، ويعمل في المستشفى عشرون شخصاً هم : طبيب واحد ، وصيدلي واحد ، وجراح ، ومعاون للجراح ، ومدير للمستشفى ، وعامل للمستودع ، وقابلة واحدة للنساء ، وكانت مصاريف المستشفى كلها تسدد من أوقاف بزم عالم والدة السلطان ، حيث يقدم المستشفى خدماته الطبية والعلاجية مجاناً ، وعند الاطلاع على سجل المستشفى من شهر ربيع الأول سنة 1286هـ/ 1869م حتى شهر ذي القعدة سنة 1290هـ/ 1874م ، وجد أن 48828 شخصاً من المرضى قد عولجوا فيه ، وتوفي منهم 718 مريضاً ، وشفي بإذنه سبحانه وتعالى العدد الباقي ، وفي هذه المدة صرف على تشغيل المستشفى مبلغ قدره 21496 قرشاً ، ما عدا رواتب الموظفين بالمستشفى[40] .

ويبدو أن الحالة الجيدة للمستشفى لم تستمر مدة طويلة ، فقد أعطى الزائر

الآخر الذي جاء إلى هذا المستشفى بعد ثمانية عشر عاماً ، وهو القائمقام الدكتور قيصرلي شاكر ، وصفاً مختلفاً بعض الاختلاف عن سلفه ، فأشار إلى أن : مستشفى الغرباء بمكة المكرمة يقع في المحل المعروف بالقبان داخل السوق في الجانب الشرقي للمروة ، ومبنى المستشفى كان مدرسة قديمة بنتها خاصكي سلطان المعروفة بخرم سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني ، ورباطها متصل بالمدرسة ، وتم تحويل هذه المدرسة إلى مستشفى مؤقت للغرباء بقرار من لجنة طبية أرسلت إلى الحجاز سنة 1282هـ/ 1865م لتفقد أحوال الحجاز الصحية . وإذا كان مبنى المدرسة وبناء طرازها القديم وأبوابها ونوافذها لا يتناسب ولا تصلح لأن تكون مستشفى ، إلا أنه يشكر على وجوده من عدمه ، واليوم فإن هذا المستشفى الذي يحوي خمسين سريراً غير كاف لاستيعاب مرضى مكة المكرمة ، التي هي موطن الغرباء والفقراء والمساكين ، والتي يفترش أو يعيش في شوارعها وأزقتها ألوف من الغرباء وهم مرضى ، وكذلك لا يستوعب المراجعين الكثيرين من مرضى الحجاج أيام الحج ، لعدم وجود الأسرة الكافية فيه ، ويضطر هؤلاء المرضى إلى النوم هنا وهناك أي في الشوارع والأزقة ، ولا سيما أن الكثير من الحجاج الهنود مساكين وفقراء وعجزة ومصابون بالجدري ، وهؤلاء لا يجوز تركهم بدون طعام ولا علاج ، وهم يفترشون الأرض والشوارع والأزقة حول الحرم الشريف ، لعدم إمكانية استيعاب المستشفى لهم . ومن المؤسف جداً عدم وجود قسم خاص بالنساء في المستشفى ، كما أنه يوجد في منطقة قريبة من المستشفى سوق مزدحمة في غاية التعفن ، حيث توجد دكاكين الجزارين والخضروات أمام باب المستشفى ، ويليها سوق السمك في غاية التعفن أيضاً ؛ إذ يفسد هواء مكة وجوها ، ولا سيما وسط البلد حيث تنتشر الروائح من جروح المرضى العميقة الذين يقيمون في المستشفى من جهة ، والروائح التي تنتشر من سوق الجزارين ومن سوق السمك من جهة أخرى ، وفي الختام يقترح صاحب هذا التقرير نقل المستشفى من مكانه الحالي في وسط البلد المختل هواؤه بهذه الروائح التي تنتشر من الأسواق وجروح المرضى بالمستشفى ، إلى مكان آخر مناسب في البلد[41] .

ويظهر أن المستشفى لم ينقل من مكانه إلى أن قام إبراهيم رفعت بزيارته سنة 1318هـ/ 1901م ، فقام بتحديد مكان للمستشفى بالجهة الشرقية من المسجد الحرام ، وأشار إلى زيارته تلك بالقول :

. . . زرت هذا المستشفى في 27 ذي الحجة سنة 1318هـ/ 16 أبريل سنة 1901م ، فوجدت به طبيبين : يدعى أولهما إسماعيل أفندي ثروت طبيباً أولاً ، وثانيهما عثمان أفندي إسماعيل طبيباً ثانياً ، ورأيت صيدلياً اسمه حسن أفندي تحسين ، والكل مجمل بالثياب الجيدة النظيفة ، وبه ما يقرب من 50 سريراً ، وقد مررت بأقسامه فوجدت إهمالا شديداً في غاية القذارة ، تنبعث عنها الروائح الكريهة ، ولا يصلحها إلا حرقها ، وقد اعترف الطبيب الذي صاحبني بذلك ، وكان يريد عدم مروري بهذا القسم من شدة عفونته ، وقد رأيت كثيراً من المرضى نائماً على الألواح ، وقد اشتد به المرض حتى صيره هيكلاً عظمياً ، وإن مريضاً هذا حاله لا ينتظر شفاؤه من مرضه وهو يستنشق تلك الروائح الخبيثة التي تفتك بالأصحاء فضلاً عن المرضى . ولولا وضعي المنديل على أنفي وضغطي عليه لما استطعت المرور ، وبلغني أنه قلما يدخل فيها مريض فيشفى ، فإذا كان ذلك شأنها فإغلاقها خير من فتحها ، فإن الهواء النقي قد يشفي المريض مما ألمّ به ، وتأتي الأدوية إلى هذا المستشفى من الآستانة ، أما الأغذية والمفروشات فمن ديوان مكة المكرمة[42] .

أما محمد لبيب البتنوني مؤلف الرحلة الحجازية سنة 1327هـ/ 1909م فقد تحدث عن هذا المستشفى عند زيارته مكة المكرمة بقوله :

« . . . وفي مكة مستشفى معروف الآن باسم شفاء خانة الخاصكية ، وهو من خيرات خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القانوني»[43] ، ويلاحظ هنا أن المؤلف لم يكن دقيقاً في نسبة المستشفى إلى خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان ؛ إذ إن الصواب هو أن مبنى المستشفى نفسه من خيرات خاصكي سلطان ، ولكن المستشفى من خيرات بزم عالم والدة السلطان عبدالمجيد خان ، وهو ما أثبته البحث في الصفحات السابقة .

ويذهب أحد المؤرخين إلى أنه كان بمكة المكرمة في العهد العثماني مستشفى واحد أسس على نفقة إحدى كريمات السلاطين العثمانيين ، وكان يديره طبيب واحد ، وصيدلي واحد ، ومعاون لتضميد بعض الجراحات الخفيفة ، وكان يعرف بالقبان ، ويشتمل بجواره على مطعم للفقراء ، وعلى مسجد صغير يقال إنه موضع دار أبي صخر بن حرب ، وكانت العناية في المستشفى ضعيفة جداً لم تحقق الهدف الذي من أجله أنشئ هذا المستشفى[44] ، على حين ينفي مؤرخ آخر وجود مستشفى بمكة المكرمة في العهد العثماني غير مستشفى القبان الذي يقصد به مستشفى الغرباء في المدعى ، وهو الذي حُوِّل مبناه من مدرسة خاصكي سلطان إلى مستشفى الغرباء[45] .

2 ـ المستشفى العسكري

يوجد في مكة المكرمة مستشفى آخر يعرف بالمستشفى العسكري ، أنشئ في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، وبالتحديد قبل سنة 1298هـ/ 1881م[46] وهو المستشفى العسكري الذي تم إعداده ليكون مستشفى بتحويل قلعة فلفل الكائنة على جبل لعلع في الفلق ، إلى مستشفى عسكري في بداية فترة ولاية عثمان نوري باشا على مكة المكرمة . ولم يرد ذكر لهذا المستشفى في المصادر التاريخية العربية والعثمانية التي شملها البحث ، ولعل الوثائق العثمانية غير المفهرسة في الأرشيف العثماني في إستانبول تبرز هذه المعلومات عند الاطلاع عليها بعد فهرستها وإتاحتها للباحثين .

3 ـ دائرة الصحة بمكة المكرمة ومستشفى منى

ومن المؤسسات الصحية التي أقامتها الدولة العثمانية بمكة المكرمة دائرة للصحة بحي أجياد ، وقد أسسها عثمان نوري باشا في بداية ولايته على مكة المكرمة[47] ، وكانت مكونة من طبيب وصيدلي ومضمد للجراح . وفي عام 1330هـ/ 1912م أرسلت الحكومة العثمانية عدداً من الأطباء للعناية بشؤون الحج ، وكذلك نصبت صوالين من الخشب غير القابل للاحتراق ليكون مقرّا للمرضى الذين يعالجون داخلياً[48] ، ومن الجهود الصحية التي قامت بها الدولة

العثمانية في المشاعر المقدسة إنشاء مستشفى في منى ، ولم تذكر المصادر التاريخية تاريخ إنشاء هذا المستشفى إلا أن أحد المؤرخين المعاصرين أشار إلى أن مبنى المستشفى أنشئ من جديد بالطراز الحديث في زمن السلطان عبدالحميد الثاني وأضيفت إليه دائرة الصحة ، وكانت سعة هذا المستشفى 40 سريراً ، وأما المعالجة والكشف على المرضى والأدوية فكانت مجاناً ، ويقوم السلطان نفسه بتسديد مصاريف المستشفى ، وكان يرفع عليه العلم في النهار ، ويعلق عليه شمعة حمراء في الليل لإرشاد المرضى إلى موقع المستشفى[49] .

ثانياً ـ المنشآت الطبية في المدينة المنورة

يبدو أن الذين كتبوا عن المدينة المنورة قد عنوا بشكل عام بوصف المسجد النبوي الشريف وعمارته ، وشوارع المدينة وأزقتها ومساجدها ومدارسها وأربطتها وعيونها وآبارها ومآثرها التاريخية الأخرى ، ولم يتحدثوا عن منشآتها الطبية . ولا شك أن مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم حظيت من الخلفاء والملوك والسلاطين بعناية كبيرة ، مثل ما حظيت مكة المكرمة ، وكذلك نرى أن علماء المسلمين ، سواء أكانوا من أهلها أم من البلدان الإسلامية الأخرى ، صرفوا جل اهتمامهم بها إلى تصنيف المؤلفات عن هذه المدينة المباركة قديماً وحديثاً . وقد تركوا لنا تراثاً عظيماً عنها ، إلا أنهم لم يعنوا كثيراً بالجانب الطبي والمنشآت الطبية في مؤلفاتهم ، مع العلم بأن هذه الخدمة في المجتمع المدني كانت موجودة في العصور المبكرة ، ذلك أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنتصر بالله أنشأ بيمارستاناً بالمدينة المنورة سنة سبع وعشرين وست مئة ، وكان موضع هذا المستشفى بالجانب الشمالي للمسجد النبوي في موضع دار حميد بن عبدالرحمن بن عوف المسماة بدار الضيافة ، وهي التي تقابل باب الضيافة الحادي عشر من أبواب المسجد النبوي الشريف[50] .

وفي سنة 663هـ/ 1265م جدد هذا المستشفى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ، عندما أرسل من القاهرة إلى المدينة المنورة الأخشاب والحديد والرصاص والآلات والصناع وعددهم ثلاثة وخمسون رجلاً ، لإتمام عمارة الحرم

النبوي الشريف ، كما بعث إلى هذا المستشفى طبيباً يدعى محيي الدين أحمد ابن أبي الحسين بن تمام ، ونقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة ومراهم وسكراً لأجل معالجة المرضى[51] . وقد قام هذا المستشفى بدوره في العهد العثماني ، وأرسلت الدولة العثمانية كتاباً صدر عن الآستانة بتاريخ 975هـ/ 1567م إلى قاضي المدينة المنورة وشيخ حرمها تطلب فيه من المسؤولين معلومات وافية عن الأشخاص الذين ماتوا في مستشفى المدينة ، وعن متروكاتهم ، وعن سجلات هذه المتروكات ، وأماكن صرف نقودها التي استوفيت من بيع بعض منها[52] .

وفي القرن الثالث عشر الهجري نرى أن بعض رجال الدولة قاموا بزيارة المدينة المنورة ، وكتبوا تقارير وألفوا كتباً عنها ، حيث أشاروا فيها إلى وجود مستشفيات بها[53] ، وكذلك وردت بتاريخ جمادى الأولى سنة 1275هـ/ 1859م ، مذكرة بخصوص إنشاء مستشفى بالمدينة المنورة لمرضى الحجاج والمجاورين والأهالي[54] .

ومن أهم المستشفيات الموجودة في تلك الفترة بالمدينة المنورة : مستشفى الغرباء ، والمستشفى العسكري ، ومستشفى خسته خانة والدة السلطان ، ومستشفى الحميدية ، ومستشفى دار الشفاء للمجانين ، وسيتحدث البحث بشيء من التفصيل عن هذه المستشفيات من خلال المصادر والمراجع المتوافرة للبحث .

أ ـ مستشفى الغرباء

هو مستشفى صغير يحوي عشرة أسرة[55] ، ويقع في جهة باب السلام للمسجد النبوي الشريف في شارع ضيق ومزدحم . ولم تحدد المصادر التاريخية تاريخ تأسيس هذا المستشفى ، ولعله المستشفى الذي أشارت إليه الوثيقة العثمانية المؤرخة في جمادى الأولى سنة 1275هـ/ 1859م[56] ، وهو من خيرات بزم عالم والدة السلطان عبدالمجيد خان ، فهي التي قامت بإحياء مستشفى الغرباء بمكة المكرمة في الفترة نفسها[57] ، كما أن برتونيال والدة السلطان عبدالعزيز خان أرسلت إلى هذين المستشفيين (مستشفى الغرباء بمكة ، ومستشفى الغرباء بالمدينة)

أطباء وجراحين وصيادلة وقابلات للنساء وخداماً من أوقافها الخاصة[58] .

ب - المستشفى العسكري

مبنى هذا المستشفى عبارة عن مدرسة بنتها خاصكي خرم سلطانة زوجة السلطان سليمان القانوني ، وهي تقع بعد القشلة لعساكر المشاة الهمايونية الكائنة أمام الباب الحميدي[59] .

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن مبناه كان مسجداً ، بنته خاصكي خرم سلطانة ، ثم حُوِّل إلى خسته خانة للعساكر النظامية ، وموقع المستشفى تجاه بيت الترجمان في الصف القبلي على طرف مجرى أبي جيدة من شرق مدرسة الخاصكية للمرحومة خاصكي سلطان ، وبها مسجد ومنارة ، وقد صارت مدة من الزمن داراً للحكومة ، فيها الحبس ، ثم صارت خسته خانة للعساكر النظامية الشاهانية[60] .

ج ـ خسته خانة والدة السلطان

وفي المدينة المنورة وجد أساس لمستشفى تقرر بناؤه على نفقة واحدة من أمهات السلاطين العثمانيين ، ولعلها والدة السلطان عبدالعزيز برتونيال والدة سلطان . وقد أشير إلى مكان هذا المستشفى في خريطة المدينة المنورة التي عملت سنة 1297هـ/ 1880م ، وقيل فيها : خسته خانه التي بنيت أساساتها فقط ، تقع في شارع العنبرية إلى الغرب من التكية المصرية أمام قشلة العساكر الشاهانية ، ولم تزود الوثائق والمصادر التاريخية البحث بأي معلومات أخرى عن هذا المستشفى .

د - مستشفى الحميدية

هذا المستشفى تحدث عنه القائمقام الدكتور قيصرلي شاكر في تقريره باللغة العثمانية ، حيث تحدث عن الأحوال الصحية في الحجاز وإصلاحاتها الحاضرة حيث قال : « . . . وأثناء وجودي في المدينة المنورة وصل إلى محافظ المدينة أمر سلطان بخصوص إنشاء مستشفى بالمدينة المنورة ، وشكل المحافظ باشا

هيئة طبية وعسكرية ، وأحال الموضوع إليها ، وكنت من المدعوين إلى هذه اللجنة بدعوة رسمية ، حيث أشير في الدعوة إلى اسم السلطان عبدالحميد الثاني»[61] .

وقد قام القائمقام المذكور بزيارة لهذه الأماكن واحداً تلو الآخرى ، ليرى مدى صلاحيتها لإقامة المستشفى عليها ، ووجد فيها عيوباً تحول دون إنشاء المستشفى فيها ، إلا أنه أشار إلى أرض كبيرة عند قرب الباب الحميدي ، ويتصل بها بستان لشخص يدعى القاضي إبراهيم معروض للبيع عن طريق المحكمة الشرعية ، وفي داخل البستان توجد بئران ماؤهما في غاية العذوبة ، وكتبت هذه اللجنة محضراً مشتركاً باتفاق جميع أعضائها ، أوصت فيه بشراء هذا البستان وضمه لتلك الأرض ، وبناء مستشفى مرتفع وضخم عليها ، وسلمته إلى محافظ المدينة المنورة[62] .

وبعد ذلك لم ترد معلومات وثائقية أو من المصادر العثمانية تمكن البحث من تتبع سير إنجاز هذا المستشفى ، ويبدو أنه كان مشروعاً لم تتمكن الدولة العثمانية من إنجازه .

ثالثاً – المحاجر والكرنتينات

إن كلمة كرانتينا ذات أصل فرنسي وهي" Quarantaine"[63] ، ويقابلها في اللغة العربية لفظ حجر صحي أو محجر صحي . والحجر : مصدر حجر عليه القاضي يحجر حجراً إذا منعه من التصرف في ماله ومنه : حجر القاضي على الصغير والسفيه إذا منعهما من التصرف في مالهما ، قال ابن سيده : الحجر المنع ، حجر عليه يحجر حَجْراً وحُجْراً وحِجْراً وحِجْراناً منع منه[64] .

والمحجر الصحي هو مكان حجز البضائع والوافدين من الخارج ووضعهم تحت مراقبة طبية ، واتخاذ التدابير اللازمة لعدم انتشار الأمراض الوبائية إن وجدت ؛ حيث إن السفن القادمة من الخارج كانت تمضي في المكان الذي تعينه السلطات المختصة في ميناء الوصول الذي فيه المحجر الصحي أربعين يوماً دون

تفريغ شحنتها أو إنزال أحد ملاحيها أو ركابها حتى تظهر أعراض الوباء أو المرض إن وجد ، وتتخذ التدابير اللازمة لمكافحته[65] .

وعينت جمهورية فينيسيا (البندقية) لأول مرة سنة 786هـ/ 1384م ضباطاً مسيحيين يقومون بتفتيش السفن التي تأتي من الخارج إلى ثغورها البحرية ، عندما رأت أن الأوبئة تأتي إلى أوروبا من الشرق وبلاد الغرب بشمال إفريقية عن الطريق البحري ، فأقامت أول محجر صحي سمته "Lazaretk"[66] سنة 806هـ/ 1403م في جزيرة صغيرة قريبة منها اسمها Sainte Marie de Nazareh في البحر الأدرياتيكي ، وسارت على أثرها في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادي ثغور البحر الأبيض المتوسط العظمى في إقامة المحاجر الصحية ، وزادت العناية بهذه المحاجر الصحية عندما فشا الطاعون ببلاد إيطاليا سنة 1067هـ/ 1656م ، حتى إنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم . ولما ظهر الوباء الأصفر في كاتالونيا[67] بأسبانيا ازداد اهتمام الأوروبيين بالمحاجر الصحية ، فقامت فرنسا بوضع قانون للكرانتينات في سنة 1238هـ/ 3 مارس 1822م ، وصار هذا القانون أساس الأنظمة الصحية للمحاجر ، ثم أدخل عليه تعديلات كثيرة مهمة في سنوات مختلفة ، آخرها في سنة 1267هـ/ 24 ديسمبر 1850م[68] .

أ - المفهوم الإسلامي للكرنتينات وبداية ظهورها

إذا كان الاحتراز من جميع المضار المظنونة وعدم التعرض للتلف أساساً في الإسلام ، فإن الجالس تحت الجدار المائل يعتبر آثماً ، وكان يجب عليه أن يحترز عنه ، فالمطلع على تاريخ الإسلام يرى أن المسلمين سبقوا الأوروبيين في الحجر الصحي ؛ حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع القانون الصحي لأول مرة قبل الغربيين بثمانية قرون .

روى البخاري عن عبدالله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرف ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام ، قال ابن عباس : فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع

بالشام ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجنا لأمر ولا نرى أن نرجع عنه ، وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء . فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ، ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه .

قال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة . . . نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان : إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله؟ وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال : فجاء عبدالرحمن بن عوف وكان متغيباً في بعض حاجته فقال : إن عندي في هذا علماً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، قال : فحمد الله عمر ، ثم انصرف[69] .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « . . .وفرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد»[70] ، مما يدل على عدم المجالسة وعدم المجاورَة للمرضى ، حيث إن لفظ القرف الذي ورد في الحديث الذي أخرجه أبو داود عن فروة بن مسيك قال : قلت : يا رسول الله أرض عندنا يقال لها أبين ، هي أرض ريفنا وميرتنا ، وإنها وبئة ، أو قال : وباؤها شديد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : دعها عنك فإن من القرف التلف[71] ، فسر معناه بملابسة الداء ومداناة المرضى .

وهذه النصوص النبوية تعتبر أول نظام أو قانون للحجر الصحي في تاريخ البشر بالمعنى العام ، وقد توصل الغربيون إلى هذه المرحلة من العلم بعد مضي ثمانية قرون من الزمن .

أما ظهور الكرانتينات والمحاجر الصحية في شبه الجزيرة العربية بالمعنى الحديث فإنه كان في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري ، وأهم الأسباب التي دعت إلى إقامة هذه المحاجر الصحية هي :

أولاً : انتشار الكوليرا في مواسم الحج بالحجاز في سنوات متتالية في تلك الفترة ، وقد ظهرت الكوليرا في الحجاز لأول مرة سنة 1245هـ/ 1831م ، ومن هناك انتقلت إلى مصر وإلى أوروبا ، ثم ظهرت بالتوالي في السنوات 1252هـ/ 1838م ، 1253هـ/ 1839م ، 1256هـ/ 1840م ، 1263هـ/ 1846م ، 1265هـ/ 1848م ، 1267هـ/ 1850م ، 1269هـ/ 1852م ، 1273هـ/ 1856م ، 1275هـ/ 1858م ، 1279هـ/ 1862م ، 1282هـ/ 1865م ، 1284هـ/ 1867م ، 1288هـ/ 1871م ، 1289هـ/ 1872م ، 1290هـ/ 1873م ، 1299هـ/ 1881م ، 1398هـ/ 1892م ، ويذكر الأطباء الغربيون أن عدد المتوفين في الكوليرا التي وقعت في سنة 1263هـ/ 1846م وسنة 1282هـ/ 1865م قد وصل إلى 15,000 فرد من المسلمين ، وبلغ عدد المتوفين في سنة 1289هـ/ 1872م مئة وثلاثين نفراً ، وفي سنة 1290هـ/ 1873م ثلاث مئة وثمانية عشر نفراً ، وأما عدد المتوفين في سنة 1308هـ/ 1892م فقد بلغ من جراء الكوليرا في جدة ومكة 4758 نفراً[72] .

والشيء الذي يلفت النظر هو أن جميع هذه الحالات وقعت في مواسم الحج ، غير الحالتين اللتين وقعتا في الدرعية سنة 1284هـ/ 1867م ، وسنة 1299هـ/ 1881م ، حيث إنها انتقلت إلى هناك من مكة ، مما يعني أن الكوليرا التي ظهرت في مكة إنما جاءت إليها من الخارج عن طريق بعض الحجاج ، ومن ذلك أن الكوليرا التي ظهرت في سنة 1299هـ/ 1881م دخلت إلى الحجاز عن طريق سفينة قولومبيان الإنجليزية التي كانت تحمل حجاجاً من الهند ، وعندما وصلت هذه السفينة إلى ميناء عدن مكثت فيها خمسة وثلاثين يوماً ، وكان بها حجاج مرضى أصيبوا بالكوليرا ، إلا أن المسؤولين الإنجليز ستروا عليهم ، وأخذوا للسفينة ترخيص الطهارة ، ودخلت به إلى ميناء جدة[73] . وكذلك الحال في عام 1308هـ/ 1892م ؛ حيث دخلت الكوليرا إلى جدة ، ومنها إلى مكة المكرمة

والمدينة المنورة عن طريق سفينة إنجليزية تدعى «دقان» ، اجتازت المحجر الصحي بجزيرة قمران على غفلة من المسؤولين الصحيين ، ووصلت إلى ميناء جدة[74] .

ثانياً : ضغوط الدول الأوروبية التي كانت دائماً على اعتقاد بأن الكوليرا تنتقل إلى أوروبا عن طريق الشرق ، وبخاصة أن الحجاز هي المنطقة التي تتفشى فيها الكوليرا ، في أثناء موسم الحج ، ومن هناك تنتقل إلى المناطق الأخرى في العالم ، مع العلم بأن جميع الحالات التي وقعت في الحجاز جاءت عن طريق بعض الحجاج ، وخصوصاً عن طريق الحجاج الهنود الذين كانت تحكمهم إنجلترا ، وقد بالغ الأطباء الغربيون في كتبهم ومقالاتهم في عدد الوفيات من جراء الكوليرا في الحجاز ، وتحاملوا فيها على الإسلام والمسلمين والأماكن المقدسة ، وحاولوا منع المسلمين من الذهاب لأداء فريضة الحج من البلدان التي كانوا يحكمونها بحجة انتشار الكوليرا فيها ، وخوفاً من انتقالها إلى أوروبا عن طريق بعض مواطني البلدان الإسلامية الخاضعة لحكمهم[75] .

وعندما دخلت الكوليرا إلى مصر سنة 1245هـ/ 1831م أدخل محمد علي باشا والي مصر إلى مجلس الصحة العمومي أنظمة الكرانتينات المعمول بها في أوروبا ، وجمع قناصل الدول ، وشكَّل منهم لجنة للنظر في الأمور الخاصة بالكرانتينات ، وأصدر بذلك قراراً في سنة 1245هـ/ الموافق 8 أكتوبر 1831م ، وفي سنة 1246هـ/ 1832م بُنيَ في الإسكندرية أول محجر صحي سماه الإسكندريون مظريطة أو أظاريَطة[76] .

وفي أواخر سنة 1253هـ/ 1839م ألغى محمد علي باشا هذا المجلس القنصلي ، وشكل مكانه إدارة الصحة العمومية التي تتكون من رئيس وسبعة أعضاء من أطباء وأعيان التجار ؛ من هنا أخذت فرنسا تسعى لإقامة مؤتمر دولي صحي من الدول ذات المصلحة في البحر المتوسط ، فعقد هذا المؤتمر في باريس ، وقد شارك فيه أعضاء من فرنسا ومرسيليا والنمسا وأسبانيا وإيطاليا واليونان والبرتغال وسردينيا وروسيا والدولة العثمانية . وأصدر المؤتمر قانوناً في سنة 1270هـ/ الموافق 4 يونية 1853م راعى فيه السهولة في الحجر ، خصوصاً

على البضائع . ولم توافق إنجلترا على قرارات المؤتمر ، واتخذت احتياطات خاصة لموانئها . ونتيجة لهذا القانون شكل مجلس دولي في الآستانة ، ومجلس دولي آخر في الإسكندرية ، وظيفتهما إعلان الأوبئة عند ظهورها ، واتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم انتشارها ومنع وصولها إلى أوروبا[77] .

ومع شدة انتشار مرض الكوليرا في الحجاز سنة 1275هـ/ 1858م رأت السلطات المصرية ضرورة إقامة محجر صحي في الطور ، حيث تم تأسيس محجر صحي فيها سنة 1275هـ/ 1858م في عهد سعيد باشا بن محمد علي باشا ، ولكن لم يتم تنظيمه على الطراز الحديث وتجهيزه بأحدث المعدات والأدوات إلا بعد صدور الأمر العالي سنة 1309هـ/ 1893م . ومن هذا التاريخ بدأ ينمو ويتحسن حتى أصبح من أكبر المحاجر الصحية ، ويعتبر هذا المحجر خاصاً بالحجاج المصريين وحجاج البلاد الأخرى الذين يسلكون طريق الطور في العودة إلى بلدانهم[78] .

ويصف المؤرخون المعاصرون هذا المحجر بأنه أنشئ على شكل طائر كبير جثم في البحر ، وبسط جناحيه في البر ، وله ثلاثة مباخر مدت منها جسور إلى آخر حد اللسان المرجاني ، ليتسنى للسفن الصغيرة الاقتراب من البر ، وفي رأسه مستشفى للأمراض الوبائية ، وفي عنقه أربعة مستشفيات ، واحد منها للجراحة ، وثلاثة للأمراض العادية ، وصيدلية كبيرة ، ومنازل للأطباء والممرضين والممرضات والعساكر ، وبيت المال ، ومخزن للكهرباء ، وجهاز للتلفون يربط المحجر بالمحاجر الأخرى المهمة ، وفي جناحيه صفان من المنازل للحجاج ، وفي كل صف عشرة منازل ، فالمنازل الواقعة إلى جهة اليمين والمبنية بالحجر خصصت للحجاج القادمين من جدة ، والواقعة إلى اليسار وهي عبارة عن خيام خصصت للحجاج القادمين من ينبع ، وفي وسطه بئر عذبة الماء تدعى بئر مراد ، مركب عليها آلة بخارية لرفع الماء ، وحديقة واسعة ، ومنزل لناظر المحجر ، ومنزل للمأمور ، ومخزن للخيام ، ومكتب للإدارة ، بالإضافة إلى وجود سكة

حديد ضيقة تبدأ من آخر طرف اللسان المرجاني في البحر ، وتمر بالمباخر والمنازل وجميع المراكز المهمة في المحجر إلى أن تنتهي بالمكان الذي يعزل فيه الموبوءون ، وكذلك يوجد خارج المحجر منزل لرئيس المحجر وخزانات للماء[79] .

وكان العاملون في هذا المحجر من الأروام المسيحيين ، سواء أكانوا أطباء أم مفتشين ، وكانت معاملتهم للحجاج عموماً في غاية السوء ، فهم لا يهتمون بأمتعة الحجاج ، ويرمون بكل ما في حقائبهم على الأرض من غير مبالاة ويعدمون مأكولاتهم ومشروباتهم ، وكانت حالة المساكن والمرافق الأخرى بالمحجر غير مناسبة صحياً ، حتى إن كثيراً من الحجاج كانوا يصابون بأمراض مختلفة في أثناء مقامهم بها[80] .

ب ـ المحاجر المقامة على السواحل الجنوبية للبحر الأحمر

في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري بدأت الدولة العثمانية تنهض إلى إقامة المحاجر على السواحل الجنوبية للبحر الأحمر ، وذلك بعد مؤتمر إستانبول الصحي الذي عقد في عام 1284هـ ، وأوصى بإنشاء محاجر صحية ، واتخاذ تدابير صحية أخرى في البحر الأحمر ، مع أن الدولة كانت قد اتخذت بعض التدابير الصحية المؤقتة في هذه المناطق قبل انعقاد المؤتمر بعدة سنوات ، ولكنها كانت غير كافية .

وفي 8 من رجب سنة 1285هـ/ 1868م ، أي بعد سنة من انعقاد مؤتمر إستانبول ، صدر كتاب من الصدارة العظمى إلى إمارة مكة المكرمة يشار فيه إلى توصية المؤتمر الذي عقد في العام الماضي بخصوص اتخاذ تدابير صحية في السواحل الجنوبية للبحر الأحمر تمنع سريان الأوبئة والكوليرا ، وفي مقدمة هذه التدابير إنشاء محجر صحي بجوار باب المندب ، مع أن الدولة كانت قد اتخذت بعض التدابير الصحية في هذه المنطقة ، كما أن إنجلترا وهولندا قامتا باتخاذ تدابير صحية ، وإقامة محاجر صحية في الهند وجاوا ، وطلبتا من الدول الأخرى اقتفاء أثرهما في ذلك .

وأكد الكتاب رغبة الدولة العثمانية في إقامة محاجر صحية على سواحل البحر الأحمر الجنوبية ؛ حيث إن جزيرة قمران - وإن كانت مناسبة لإقامة محجر صحي - لا تخلو من بعض المشاكل والمحاذير التي قد تحدث من جراء إنشاء محجر فيها ، لبعدها عن سواحل اليمن وباب المندب . ولكن وزارة الصحة أفادت باختيار حصن الغراب الذي يتصرف فيه شيخ من شيوخ القبائل يقيم في مدينة أبان الواقعة بين عدن ومقلا ؛ حيث نوقش الموضوع في المجلس المخصوص للوزراء ، وقرر أن يقوم أمير مكة المكرمة بدراسة الموضوع من ناحية مناسبة المكان لإقامة المحجر الصحي عليه ، وإمكان موافقة الشيخ المذكور على إقامته فيه ، وإخباره بذلك[81] .

ويبدو أن المحجر الصحي الذي كان قد اختير له حصن الغراب لإقامته فيه لم يتم إنشاؤه ، أو لم يوافق على إقامته الشيخ المذكور ، أو تراجعت الدولة عن إقامته فيه ، حيث صدر كتاب ثان من الصدارة العظمى بتاريخ 11 من رجب سنة 1285هـ/ 1868م إلى إمارة مكة المكرمة ومشيخة الحرم النبوي الشريف وولاية الحجاز بخصوص صرف مرتبات موظفي الصحة والأطباء والكتاب الذين عينتهم وزارة الصحة على محاجر الحديدة وجزيرة قمران ومخا واللحية وجيزان ، وكذلك صرف مصروفاتهم المتفرقة من ميزانية متصرفية اليمن ، اعتباراً من تاريخ تعيينهم ، وذلك بموجب الدفتر الملفوف ، حيث صدر الأمر السلطاني ، وأبلغت به وزارة الصحة ، في صرف معاشاتهم ومصروفاتهم شهراً بشهر ، من ميزانية اليمن[82] .

ويفهم من هذه الوثيقة أن المحجر الصحي الذي كانت الدولة ترغب في إنشائه في حصن الغراب ، أنشئ في جزيرة قمران ، واستمر في أداء مهمته حتى ألغي في سنة 1371هـ/ 1951م ، وذلك بناء على تعهد المملكة العربية السعودية بأن تتولى عملية التفتيش الصحي بواسطة أجهزتها الصحية في المحجر الصحي الموجود في ميناء جدة[83] . هذا ، على حين تؤكد الوثيقة السابقة أن الدولة العثمانية قد قامت بإنشاء المحاجر الصحية وإقامتها في كل من الحديدة والمخا

واللحيّة وجيزان والليث في الجنوب ، وفي الوجه وينبع في الشمال لتفتيش السفن المارة بها والحجاج لتوفير الأمن الصحي في الحج ، ومنع سريان الأوبئة والكوليرا إلى منطقة الحجاز[84] .

ج ـ المحاجر والكرنتينات في جدة

يتبين من الوثائق العثمانية أن إقامة المحجر الصحي بجدة كانت في سنة 1285هـ/ 1868م بعد مؤتمر إستانبول الصحي ؛ حيث قررت الدولة العثمانية إنشاء محجر صحي في جدة يكون مركزاً لجميع المحاجر التي تقام على السواحل اليمنية والحجازية للبحر الأحمر[85] . ويظهر أن المسؤولين كانوا يفكرون في إنشائه على هيئة في الغاية من البساطة ، على أساس أنه يمكن إزالته أو نقله إلى مكان آخر إذا اقتضى الأمر ، فقد ورد في الكتاب الصادر من الصدارة العظمى بتاريخ 18 من ذي القعدة سنة 1285هـ/ أوائل سنة 1869م والموجه إلى ولاية الحجاز بخصوص إقامة محجر صحي في جدة ، النص التالي :

تبنى فيه غرفتان لعمل الأطباء وموظفي الصحة نهاراً ، لأنهم لا يعملون فيه ليلاً ، ولا يبيتون فيه وليس به غير حارس أو حارسين ، ولذلك فإن الأمر لا يحتاج إلى تضييع الوقت بالكشف وعمل دفتر المصروفات المخمنة لإنشاء هذا المحجر ، ويلزم على السلطة المحلية واللجنة الصحية التصرف فيه والمباشرة فوراً لإنشائه ، وفي نفس الوقت تسجل المصروفات في دفتر ويرسل إلى وزارة الصحة ووزارة المالية بالآستانة[86] .

ويبدو أن مكان المحجر الصحي كان قريباً من برج المجنون عند الميناء وقريباً من المنطقة العسكرية ، لذلك حاول قائد آلاي المدفعية بجدة منع إنشاء هذا المحجر لقربه من المنطقة العسكرية ، وبجهود هذا القائد توقف العمل في المحجر ، ثم رفع الأمر إلى الآستانة بتقرير أعده الطبيب ثروت أفندي[87] ، ثم صدر أمران من الصدارة العظمى أحدهما بتاريخ 16 من صفر سنة 1286هـ/ أوائل سنة 1869م والآخر بتاريخ 4 من شعبان سنة 1286هـ/ أواخر سنة 1869م لاستكمال إنشاء المحجر في المكان المحدد له في أقرب وقت ممكن ؛ حيث إن موسم الحج قد

حان ، وإذا اقتضى الأمر فيما بعد يمكن هدمه أو نقله إلى مكان آخر[88] .

ولم تستطع الوثائق العثمانية والمصادر المعاصرة تحديد مكان المحجر بجدة تحديداً دقيقاً ، على رغم إشارة بعض منها إلى أنه كان بالقرب من برج المجنون ، ويظهر أنه نقل فيما بعد إلى جزيرتي أبو سعيد والواسطة ؛ حيث كان فيهما في بداية العهد السعودي . وقد كتب عنه إبراهيم رفعت عندما تحدث عن رسم المحجر الصحي في حج عام 1321هـ/ 1904م ، وقال : قضت قوانين الدولة العلية في جدة بأن يؤخذ من كل حاج ثمانية قروش رسم الحجر الصحي ، وقرشان رسم إجازة السفر[89] ، إلا أنه لم يصفه ولم يحدد مكانه ، وإنما اكتفى بتصويره صورة شمسية ، وكان الركاب لا يمرون بالمحجر ، وإنما كان طبيب المحجر يذهب إلى الباخرة ويقوم بالكشف عليهم ، وإذا وجد بين الركاب مصاباً بمرض معد من الأوبئة كان ينقل إلى مستشفى المحجر[90] .

وقد كان المحجر في بداية العهد السعودي يقع في جزيرة أبو سعيد والواسطة ، فجزيرة أبو سعيد كانت مجهزة بكل الوسائل الفنية الحديثة ، وكانت فيها مباخر وحمامات وخمس قاعات كبيرة للمحجورين من ركاب الدرجة الثالثة ، وغرف كافية لركاب الدرجة الأولى والثانية تحتوي على سرر مع لوازمها ، ومستشفى صغير ، وصيدلية وغرفة للتجريد وغرفة للأطباء وهي تستوعب ثمان مئة راكب ، وأما جزيرة الواسطة فكانت تشتمل على ثماني قاعات بحجر الركاب وصهريج ماء ينقل إليه عند اللزوم من آلة تقطير في جزيرة أبو سعيد ، وغرفة للأطباء والصيدلي ، ومستشفى ، وتستوعب ألفاً وخمس مئة راكب[91] .

ولم تكتف الدولة العثمانية بالمحاجر الصحية البحرية ، وإنما أقامت محاجر صحية على المداخل البرية للحجاج القادمين من الشام ؛ حيث أقيم محجر صحي في قلعة الوجه شمالي مدينة جدة ، بعد أن ظهرت حالات عدة من وباء الكوليرا في تلك الجهات ، وأمرت باتخاذ التدابير اللازمة للحيلولة دون انتشار الأوبئة ، ولا سيما بين الحجاج القادمين من الشام ومن عاصمة الدولة العثمانية[92] .

الخاتمـــة

حاول هذا البحث تقديم معلومات تاريخية نادرة وموثقة عُثر عليها من الوثائق العثمانية غير المنشورة والمكتوبة باللغة العثمانية ، والتقارير الطبية التي كان يعدها رجال الدولة العثمانية ومسؤولوها المكلفون بشؤون الحج والحرمين الشريفين ، وكذلك من المخطوطات العثمانية النادرة ، سواء أكانت مكتوبة باللغة العربية أم باللغة العثمانية ، عن المنشآت الطبية التي قامت الدولة العثمانية بتوفيرها للحرمين الشريفين . كما حاول البحث تصحيح كثير من المعلومات التاريخية التي وردت في بعض الكتب ، والرد على بعض المعلومات التي أوردها بعض المؤرخين عن عدم اهتمام الدولة العثمانية بالمنشآت الطبية في الحرمين الشريفين . ويؤكد ما يذهب إليه البحث تلك التقارير والمقترحات التي طرحها رجال الدولة العثمانية على صناع القرار في الآستانة عندما تم إرسالهم إلى الحرمين الشريفين لمعرفة الاحتياجات الطبية اللازمة ، ومن أبرز هؤلاء الرجال القائمقام الدكتور قيصرلي شاكر الذي أعد تقريراً متكاملاً في 359 صفحة باللغة العثمانية ، وقدمه إلى السلطان العثماني عبدالحميد الثاني سنة 1308هـ/ 1891م ، ومن أبرز التوصيات التي شملها هذا التقرير ما يلي :

1 ـ إنشاء مستشفى جديد بمكة المكرمة بدلاً من مستشفى الغرباء ، على أن يحوي هذا المستشفى على الأقل مئة وخمسين سريراً أو مئتي سرير .

2 ـ تخصيص قسم خاص بالنساء في المستشفى الجديد المراد إنشاؤه ، وقسم خاص بالمرضى المصابين بالجدري والأمراض الوبائية المعدية .

3 ـ إنشاء مستشفى آخر بمكة المكرمة يحمل اسم السلطان ، حتى تتم المحافظة على الصحة العامة بالحرمين الشريفين ، ومن ثم يتم الرد عملياً على اعتراضات الدول الغربية وتعدياتها التي تقلل من جهود الدولة العثمانية .

4 ـ إنشاء مستشفى جديد بالمدينة المنورة بسعة خمسين سريرا على الأرض المتصلة بالباب الحميدي .

من هنا يتأكد لنا أن الدولة العثمانية قد قدمت خلال فترة حكمها للحرمين الشريفين خدمات طبية متفاوتة في جودتها ، وأرسلت هيئات طبية في محاولة لها لتحسين تلك الخدمات ، والسعي إلى الأفضل في هذا المجال ، إلا أن المصادر والمراجع المعاصرة لم تعط معلومات كافية ودقيقة لتتبع سير تلك الخدمات الطبية والمنشآت المصاحبة لها .

الهوامش والمراجع

(1) **البيمارستان** : هو المستشفى المقام لعلاج المرضى وإقامتهم ، وهو لفظ فارسي مركب من مقطعين ، بيمار أي مريض ، وستان أي محل ، ويعرف في اللغة العثمانية باسم خسته خانة – أي دار المرضى ، ويقال أحياناً البيمرستان ، والمارستان ، وهو مستشفى عام لمعالجة جميع الأمراض . ولكن بمرور الزمن اقتصر الاسم على المكان الذي يعد لإقامة المجانين ، (أحمد بن علي المقريزي : **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** ، بيروت : دار صادر ، طبعة جديدة بالأوفست ، ج2 ، ص405 . المقريزي ، أحمد بن علي : **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، ق3 ، ج1 ، حاشية 6 ، القاهرة ، من 1936–1958م ، ص716 . عيسى ، أحمد : **تاريخ البيمارستانات في الإسلام** ، ب .ت ، ط دمشق ، ص4 . عبدالله عبدالرزاق السعيد : **المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني** ، ط . أولى ، عمان : دار الضياء ، الأردن 1408هـ/ 1987م ، ص47 وما بعدها ، .

(2) هو أبو جعفر منصور بن الظاهر ، تولى الخلافة سنة 623هـ ، بعد وفاة والده الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر ، المستنصر بالله ، واستمر في الخلافة إلى أن توفي لعشر سنين من جمادى الآخرة سنة 640هـ . (قطب الدين النهروالي : **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام** ، طبعة غتنغة 1274هـ ، ص173 وما بعدها) .

(3) الفاسي ، تقي الدين محمد بن أحمد بن علي : **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** ، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري ، ج1 ، ص518 . الفاسي ، تفي الدين محمد أحمد بن علي : **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** ، ج1 ، ص123 .

(4) حجة وقف الأشرف شعبان ، رقم 153, ص530–531 .

(5) **الصرغتمشية** : نسبة إلى الأمير صرغتمش الناصري أحد كبار الأمراء في دولة الناصر حسن ، وهو الذي أمر بإنشاء هذه الميضأة فيما بين رباط أم الخليفة والبيمارستان المشار إليه ، وذلك سنة 759هـ ؛ (عمر بن فهد : **إتحاف الورى بأخبار أم القرى** ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، ج3 ، ص273–274 ، منشورات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، ط . الأولى) .

(6) الفاسي : شفاء الغرام ، ج1 ، ص538 ؛ النهروالي : الإعلام ، ص202 وما بعدها . ابن فهد : إتحاف الورى ، ج3 ، ص496–507 وما بعدها .

(7) أحمد فريدون : مجموعة منشآت سلاطين ، ج1 ، طبعة ثانية ، إستانبول : مطبعة تقويم خانة ، 1275هـ ، ص232–233 ، 266 .

(8) المكي ، محمد أمين : **خلفاء عظام عثمانية حضراتنك حرمين شريفيده كي آثار مبرورة ومشكورة هما يونلرندن باحث تاريخي بر أثردر** (الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان في الحرمين الشريفين) ، إستانبول : مطبعة عثمانية ، 1318هـ ، ص19 .

(9) Munir Atalar: **Osmanli Develtinde Surre-I Humayun ve Surre Alaylari**. Ankara, 1991, Diyanet Isleri Baskanligi Yayinlari, S.10vd.

(10) محمد نشري : كتاب **جهان نما** (تاريخ نشري) الناشر : F.R.UNAT M.A.KOYMEN, Ankara, 1949, 1957, TKK. Basimevi, C.II.,S.678.

(11) **فلوري – فلورين** : وحدة نقدية من الذهب كانت تضرب في فلورنسا . ثم أطلق هذا الاسم على كل العملات الأوروبية ، وكانت هذه العملات الأجنبية رائجة في الدولة العثمانية حتى عهد السلطان محمد الفاتح 883هـ حين ضربت العملة الذهبية العثمانية ، وأطلق عليها ذهب (ألتون) ويقابله في العربية الدينار . (انظر : PAKALIN, MEHMET Osmanli Tarih Deyimleriu ve Terimleri Sozlugu Istanbul, 1971, C.II., معجم المصطلحات التاريخية العثمانية) .

(12) عاشق باشا زادة : **تواريخ آل عثمان** 1332هـ ، إستانبول : مطبعة عامرة ، ص .196 محمد نشري : كتاب جهان نما ، ج2 ، ص69 ، 79 .

(13) عاشق باشا زادة : **تواريخ آل عثمان** ، ص196 ؛ محمد نشري : كتاب جهان نما ، ج2, ص678 ؛ صولاق زادة محمد همدمي جلبي : **تاريخ صولاق زادة** ، إستانبول ، 1297هـ ، مطبعة محمود بك ، ص188 ؛ عبدالرحمن وفيق : **تاريخ مالي** ، إستانبول ، 1330هـ ، ص75 .

(14) تقع مدينة مانيسا ما بين مدينتي أزمير وعشاق في غربي جمهورية تركيا ، وكانت هذه المدينة أحد مقرات ولي العهد في الدولة العثمانية .

(15) UZUMCARSILI, ISMAIL HAKKI: Mekke-I Mukerreme Emirleri, Ankara, 1971, S.13, dipnot 6.

(16) **دوقة** : وحدة نقدية بندقية من الذهب ، وكانت تساوي ذهباً عثمانياً واحداً ، وهو يساوي درهمين ، والدرهم يساوي 25,3 جيراماً (انظر محمد عبداللطيف هريدي : **شئون الحرمين الشريفين في العهد العثماني في ضوء الوثائق التركية العثمانية** ، القاهرة ، 1410هـ/ 1989م ، هوامش الدراسة ، ص56 ، هامش 9 .

Dr. Munir Atalar, Surre-I Huymayun ve Surre Alaylari, ?S.14. Dipnot 32;(الصورة الهمايونية ومراسيمها ، ص14 ، هامش 32) .

(17) أيوب صبري : **مرآة الحرمين (مرآة مكة)** . 1310هـ ، إستانبول : مطبعة بحرية ، ص670 ، 707 ؛ خلفاء عظام عثمانية . . . ص19 ؛ إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج2 ، ص309 .

(18) خوجة سعد الدين أفندي : **تاج التواريخ** ، مطبعة عامرة ، 1279هـ ، ج2 ، ص272 ؛ **مرآة الحرمين** (مرآة مكة) ، ص677 وما بعدها ؛ تاريخ صولاق زادة ، ص410 ؛ مرآة الحرمين ، ج2 ، ص309 ؛ Uzuncarsili: Mekle-I Mukkerreme Emirleri, S.18.

(19) الإردب يساوي 6 ويبات ، والويبة عند اللغويين تساوي 6 أصياع ، والصاع يساوي 4 أمداد ، والمد يساوي رطلاً وثلث الرطل ، والإردب يساوي 153 أوقية ومائة درهم ، وعند المصريين : الإردب يساوي 12 ويبة ، وهي تساوي 6 أكيال إستانبولية قديمة ، والويبة تساوي 10 أواقي ، والإردب يساوي 120 أوقية ، أما لدى الحجازيين فإن الإردب يساوي 11 أوقية ومئة درهم . (انظر : محمد بك : **المقاييس والموازين ؛ العملية بالديار المصرية** ، ترجمها للعربية زيور أفندي – إستانبول : طبعت بمطابع الجوائب ، 1290هـ/ 1872م ، ص13 ، 15 .

(20) **النهروالي** : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، طبعة غتنغة ، 1274هـ ، ص287 ؛ مرآة الحرمين (مرآة مكة) ، ص678 ؛ مرآة الحرمين ، ج2 ، ص309 .

(21) Ibrahim Ates: Osmanlilar zamaninda Mekke ve Medineye gonderilen Para ve Hediyeler, **Vakiflar Dergisi** No: XIII. Yil. 1981. S118.

(الهدايا والنقود التي كانت ترسل في العهد العثماني إلى مكة والمدينة ، **مجلة الأوقاف** ، عدد 13, سنة 1981, ص118) .

(22) الإعلام ، ص340 وما بعدها .

(23) الإعلام ، ص351 .

(24) الإعلام ، ص284 وما بعدها .

(25) أرشيف رئاسة الوزراء ، دفاتر المهمة ، دفتر رقم 2 ، ص157 .

(26) أرشيف رئاسة الوزراء ، دفاتر المهمة ، دفتر رقم 25 ، ص274 .

(27) بناء مرتفع قليلاً شبيه بالدكة معد للجلوس ، قال ابن الأعرابي المساطب سنادين الحدادين ، وقال أبو زيد : هي المَسْطَبَة والمسْطَبة ، وهي المجرة ، ويقال للدكان يقعد الناس عليه مسطبة ، (انظر : ابن منظور : لسان العرب ، سطب ؛ الريحاني ، عبد القادر : **العمارة في الحضارة الإسلامية** ، جدة : مطابع جامعة الملك عبدالعزيز ، ط أولى ، 1410هـ/ 1990م ؛ ص636 غالب ، عبدالرحيم : **موسوعة العمارة الإسلامية** (عربي – فرنسي – إنجليزي) ط . أولى ، 1408هـ/ 1988م ، بيروت ، ص388 . أمين ، محمد محمد : **المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية** ، ص106, القاهرة : دار النشر بالجامعة الأمريكية ، 1990م) .

(28) الإعلام ، ص305–308, 403 ؛ زمباور : **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي** ، أخرجه : زكي محمد حسن بك – حسن أحمد محمود ، بيروت : دار الرائد العربي ، 1400هـ/ 1980م ، ص241 .

(29) أرشيف رئاسة الوزراء ، دفاتر المهمة ، رقم الدفتر 51 ، ص53 .

(30) عبدالله بن محمد غازي الهندي : **إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام** ، مخطوط ، ج3, ص154 ، نسخة مصورة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة تحت رقم 46/ 16 بمعهد البحوث العلمية .

(31) وثيقة رقم 536 تصنيف جودت صحية ، أرشيف رئاسة الوزراء ، انظر صورة الوثيقة في الملحق رقم (1) من ملاحق البحث .

(32) كما هو معروف فإن الوثائق العثمانية المصنفة في أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول تشكل نسبة 10٪ تقريباً من مجموع الوثائق المحفوظة في هذا الأرشيف ، حسبما اطلع عليه الباحث خلال زيارته للأرشيف العثماني في إستانبول في صيف عام 1422هـ .

(33) يظهر من الوثـائق العثمانية أن فتح مستشفى للغرباء والفقراء بمكة المكرمة تقرر سنة 1271هـ ، ذلك أن هنـاك وثيقة بتاريخ 1271هـ بشأن تخصيص مستشفى للغرباء والفقراء بمكة المكرمة وتفرعاته ، أرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول – تصنيف إرادة مجلس الوالا رقم 13683 .

(34) مرآة الحرمين (مرآة مكة) ، ص1034 .

(35) كان مكان هذا المستشفى هو المدرسة القديمة التي بنتها خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان القـانوني ، وكـان رباطها متصلاً بهـذه المدرسة ، إلا أنهـا استولت عليهـا الأيادي بمرور الزمن ، وأجرت لبائعي الحبوب وزيت السمسم ، حيث صارت مستودعاً أو معصرة لإخراج زيوت السمسم أو دكاكين بعض التجارة . وفي سنة 1275هـ استردها حسيب باشا والي الحجاز في تلك الفترة من أيادي الغاصبين وحولها إلى مدرسة كما كانت عليه سابقاً ، مرآة الحرمين (مرآة مكة) ، ص1034 ؛ القائمقام قيصرلي شاكر :/ **حجازك أحوال عمومية صحية وإصلاحات أساسية حاضرة سيلة برابر بعض مشاهدات وملاحظات بنده كانه مي حاوي برلايحة طبية در** (تقرير طبي عن الأحوال الصحية للحجاز وإصلاحاتها الأساسية الحاضرة مع بعض مشاهداتي وملاحظاتي) مخطوط بمكتبة جامعة إستانبول تحت رقم 4609ت باللغة العثمانية ، ص60 .

(36) مرآة الحرمين (مرآة مكة) ، ص1034 .

(37) مرآة الحرمين (مرآة مكة) ، ص1034 ؛ القائمقام قيصرلي شاكر : حجازك أحوال عمومية صحية ، ص60 ، وقد أشار أيوب صبري إلى أن عدد الأسرة في المستشفى كان 70 سريراً . وفي وثيقة أرسلت إلى إمارة مكة المكرمة ووالـيها في سنة 1284هـ (أرشيف رئاسة الوزراء – دفتر العينيات رقم 871, ص11, رقم الأوراق 596 – إستانبول) بخصوص إبقاء المستشفى كما هو عليه ولو أن موقعه وحالته غير مناسبة بصورة عامة ، وذلك حتى بناء مستشفى جديد ، وتسجيل المبالغ التي صرفت لتأثيث المستشفى من أسرة وغيرها في دفتر مصاريف الصحة العمومية ، وتخصيص 2310 قروش ، اعتباراً من شهر ذي الحجة سنة 1282هـ لرواتب الموظفين الذين احتيج إلى تشغيلهم من جديد ، وأن عدد الأسرة التي صرف عليها مبلغ 35158 قرشاً كان 60 سريراً . ويذكـر إبراهيم رفعت (مـرآة الحرمين ، 1/ 185) : أن هذا المستشفى بالجهة الشرقية من المسجد الحرام ، وأنه قد أنشىء في سنة 1086هـ كما هو مكتوب عليه في زمن السلطان الغازي محمد خان الرابع . ولعله أخطأ في تاريخ إنشاء هذا المستشفى ، ووقع منه خلط فيما بين المستشفى الذي أنشئ سنة 1086هـ والمستشفى الذي حول من المدرسة إلى مستشفى . وقد سبق أن ذكر في الصفحات السابقة من هذا البحث أن المهندسين والمعماريين وصلوا إلى مكة المكرمة سنة 1085هـ لبناء مستشفى فيها ، فقاموا بالبحث عن موقع مناسب لإقامة المستشفى عليه ، واختاروا بعض الدكاكين التي كانت تعود ملكيتها لبعض أشراف مكة ، وبعد تعويضهم عن دكاكينهم بمبالغ مجزية تم هدم هذه الدكاكين لإقامة المستشفى عليها . والمدرسة المذكورة كانت موجودة في تلك الفترة فهي من بناية السلطانة فاطمة هانم زوجة السلطان سليمان القانوني ، ومستشفى الغرباء الذي زاره إبراهيم رفعت في 27 من ذي الحجة عام 1318هـ/ 1901م هو المستشفى المحول من المدرسة المذكورة ، فلعل الحجر التأسيسي الخاص بالمستشفى الذي أنشئ سنة 1086هـ وضع في مكان ما في هذا المستشفى المحول من المدرسة المذكورة إبقاء لذكراه ؛ حيث ذكر محمد الأمين المكي أنه في عهد السلطان عبدالحميد خان

الثاني صدر أمر سلطاني لإنشاء الطابق الثاني على الطابق الأول للمستشفى ، إلا أنه لم يذكر تاريخه ، فمن المحتمل أن يكون هذا بعد سنة 1308هـ ، وقبل زيارة إبراهيم رفعت هذا المستشفى سنة 1318هـ . (محمد الأمين المكي : **خلفاء عظام عثمانية حضراتنك حرمين شريفينده كي آثار مبرورة ومشكورة همايون لرندن باحث تاريخي بر أثردر** (الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان في الحرمين الشريفين ، ص17 ، مطبعة عثمانية ، دار سعادت ، 1318هـ) .

(38) يقع هذا التقرير في 359 صفحة ، وهو مخطوط ومحفوظ في مكتبة جامعة إستانبول تحت رقم 4609ت باللغة العثمانية .

(39) يظهر أن هذا الطبيب كان ذا أهلية ودراية في الطبابة ، فقد رفعت عنه إمارة مكة المكرمة طلباً بتاريخ 10 من جمادى الأولى سنة 1287هـ إلى الآستانة بخصوص ترقيته إلى رتبة بيكباشي ، إلا أن وزارة الصحة رفضت هذا الطلب بحجة أن المذكور لم يكمل خمس سنوات بعد تخرجه من كلية الطب حسب النظام الذي ينص على ذلك ، دفتر العينيات رقم 873 ، ص92 ، بأرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول .

(40) مرآة حرمين (مرآة مكة) ، ص1035 وما بعدها .

(41) القائمقام الدكتور قيصرلي شاكر : تقرير طبي عن الحالة الصحية في الحرمين الشريفين ، سنة 1308هـ ، ص60 وما بعدها – مخطوط يقع في 359 – مكتبة جامعة إستانبول برقم 4609 باللغة العثمانة ، ص60 وما بعدها .

(42) إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، 1/ 184 وما بعدها .

(43) البتنوني : **الرحلة الحجازية** ، ص64 مكتبة المعارف ، ط20 ، الطائف .

(44) محمد عمر رفيع : **مكة في القرن الرابع عشر الهجري** ، ص227 ، مكة المكرمة : منشورات النادي الأدبي ، الطبعة الأولى ، 1401هـ/ 1981م .

(45) محمد طاهر الكردي : **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم** (ط . أولى ، 1385هـ) ، ج2 ، ص225, ب .م .ن .

(46) حيث أشارت خريطة مكة المكرمة التي صنعتها سنة 1298هـ هيئة عسكرية عثمانية إلى هذا المستشفى ، وتم التوقيع على الخريطة في قلعة فلفل بعد تحويلها إلى مستشفى عسكري . ويوجد في الجانب الجنوبي الشرقي من الخريطة مخطط لهذا المستشفى . انظر أيضاً : **حجاز ولايتي سالنامه سي** (مطبعة ولاية الحجاز . 1301هـ) وتعريبه : الكتاب السنوي لولاية الحجاز ، ص65 ؛ محمد أمين المكي : خلفاء عظام عثمانية حضراتنك حرمين شريفينده كي آثار مبرورة ومشكورة هما يونلرندن باحث تاريخي بر اثردر (الآثار المبرورة والمشكورة لسلاطين آل عثمان في الحرمين الشريفين) ، ص82 . وقد أشار محمد عمر رفيع في كتابه «**مكة في القرن الرابع عشر الهجري**» في صفحة 229 إلى هذا المستشفى عند كلامه عن صيدلية بمكة أسسها رمضان أفندي حيث قال : . . . هو رجل من مجاوري الهنود ، تعلم الصيدلة في إستانبول ، ثم عمل بمكة صيدلياً في المستشفى العسكري الذي أقامته الحكومة العثمانية في قلعة جبل الهندي قعيقعان ، إلا أنه أخطأ في مكان المستشفى حيث قال : في قلعة جبل الهندي ، والصحيح أنه يقع في قلعة فلفل الكائنة على جبل لعلع .

(47) خلفاء عظام عثمانية . . . . ، ص82 .

(48) مكة في القرن الرابع عشر الهجري ، ص228 .

(49) مرآة الحرمين مرآة مكة ، ص1036– 1037 .

(50) السمهودي ، **وفاء الوفا** ، ج2, ص695 ؛ أيوب صبري : **مرآة مدينة** (مرآة الحرمين) ، ص885 .

(51) محمد بن شاكر الكتبي : **فوات الوفيات والذيل عليها** ، ج1 ، ص243 ، بتحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، بدون ت ؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي : النجوم **الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، ج7 ، ص194 ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ؛ عبدالله عبدالرزاق مسعود السعيد : المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني ، ص274 ؛ محمد هزاع الشهري : **عمارة المسجد النبوي في العصر المملوكي** ، ص248 ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، 1402هـ/ 1982م (غير منشورة) .

(52) أرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول ، دفاتر المهمة ، رقم 7 ، ص365 .

(53) القائمقام قيصرلي شاكر : التقرير السابق ، ص199 وما بعدها ؛ إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، ج1, ص414 ؛ علي موسى : رسائل في تاريخ المدينة المنورة ، ص17 ، 40 ؛ خلفاء عظام عثمانية . . . .

(54) أرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول تصنيف إدارة المجلس المخصوص رقم 572 .

(55) القائمقام قيصرلي شاكر : التقرير السابق ، ص200 .

(56) أرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول ، تصنيف إدارة المجلس المخصوص رقم 572 .

(57) محمد أمين المكي : المصدر السابق ، ص17 .

(58) محمد أمين المكي : المصدر السابق ، ص52 .

(59) القائمقام قيصرلي شاكر : التقرير السابق ، ص199 .

(60) علي موسى : رسائل في تاريخ المدينة المنورة ، ص17 ، 40 .

(61) التقرير السابق ، ص201 .

(62) الدكتور قيصرلي شاكر ، التقرير السابق ، ص201 .

(63) الرحلة الحجازية ، ص305 .

(64) ابن منظور : **لسان العرب** (حجر) ، بيروت : دار صادر ، الطبعة الأولى ، 1410هـ/ 1990م .

(65) الفاروقي حارث سليمان : **المعجم القانوني ، إنجليزي – عربي** ، بيروت : مكتبة لبنان ، الطبعة الثالثة 1980م ، ص573 .

(66) وهي كلمة لاتينية معناها Ladre يعني الأبرص أو المجذوم ، وكانت الدولة الرومانية تبالغ في الحجر على المجذومين ، بل كانت تضعهم تحت الحجر طوال حياتهم . وكان عقاب من يخرج منهم عن نطاق الحجر أن يضرب بالرصاص . وقد ورد في الحديث الشريف أيضاً : فر من المجذوم فرارك من الأسد . وأقام الوليد بن عبدالملك الملاجئ في أنحاء دولته وجمع إليها المجذومين ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وهو يعتبر أول من أقام الملاجئ من هذا القبيل . (الرحلة الحجازية ، ص308) .

(67) وهي مقاطعة بأسبانيا عاصمتها برشلونة .
(68) الرحلة الحجازية ، ص306 .
(69) البخاري ، طب 30 (7/ 21) ، ومسلم حديث 92, 93, 94 (4/ 1737 وما بعدها) ؛ والمسند لأحمد بن حنبل 1/ 178, 180, 186, 192, 3/ 416 ؛ 4/ 177, 186 ؛ 5/ 206, 208, 210, 373 ؛ وذكره أيضاً ابن الأثير في الكامل 2/ 559 وما بعدها .
(70) البخاري ، طب 19 (7/ 17) .
(71) أبو داود ، حديث 3923 (4/ 19–20) .
(72) القائمقام الدكتور قيصرلي شاكر : التقرير السابق ، ص240–243 ؛ ص287 .
(73) المصدر السابق ، ص243 .
(74) القائمقام الدكتور قيصرلي شاكر : **حجاز حاجيلغي حقنده شيره لي دوقتور استاقولس جهل وخطاسي** (مخطوط بمكتبة جامعة إستانبول تحت رقم 4361) ، ص85 .
(75) حجازك أحوال عمومية صحية وأصول إصلاحات أساسية حاضرة سي . . . ، ص287 .
(76) البتنوني : الرحلة الحجازية ، ص306 .
(77) القائمقام الدكتور قيصرلي شاكر : حجاز حاجيلغي حقنده شيره لي . . . المصدر السابق ، ص86–88 .
(78) إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، 2/ 334 .
(79) إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، 2/ 234–238 .
(80) إبراهيم رفعت : المصدر السابق ، 2/ 231–235 .
(81) دفتر العينيات رقم 871 ، ص76 بأرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول .
(82) دفتر العينيات رقم 871 ، ص77 ، رقم الأوراق 26 بأرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول .
(83) محمد طاهر الكردي : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ، 2/ 232 .
(84) دفتر العينيات رقم 871 ، ص77 ، رقم الأوراق 26 بأرشيف رئاسة الوزراء إستانبول .
(85) دفتر العينيات رقم 871 ، ص88 ، رقم الأوراق 1010 بأرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول .
(86) دفتر العينيات رقم 871 ، ص88 ، رقم الأوراق 1010 بأرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول .
(87) دفتر العينيات رقم 873 ، ص76 ، بأرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول (انظر : صورة الوثيقة في الملحق رقم 2 من ملاحق البحث) .
(88) دفتر العينيات رقم 873 ، ص83 ، بأرشيف رئاسة الوزراء – إستانبول .
(89) مرآة الحرمين ، 1/ 16 .
(90) المصدر السابق ، 1/ 16 .
(91) فؤاد حمزة : **البلاد العربية السعودية** ، ص215, مكتبة النصر الحديثة ، ط . الثانية ، الرياض ، 1388هـ/ 1968م ؛ عبدالقدوس الأنصاري : **موسوعة تاريخ مدينة جدة** ، ص126–127 ، جدة : مطابع الروضة ، ط . الثانية ، 1401هـ/ 1980م .
(92) دفتر العينيات رقم 871 ، ص25–26 ، بأرشيف رئاسة الوزراء في إستانبول

* * *

ملحق رقم 1

وثيقة رقم 536 ـ تصنيف جودت صحية ، أرشيف رئاسة الوزراء ، الأرشيف العثماني .

ملحق رقم 2

وثيقة من دفتر رقم 173 ص 76 أرشيف رئاسة الوزراء ، الأرشيف العثماني ، إستانبول .